الخلاص والإيمان

تبدو العلاقة بين الخلاص والإيمان غير مفهومة لاهوتياً عند الكثيرين، إذ لأول وهلة يفهم الإنسان أن عليه أن يؤمن بالمسيح، حيث أن الإيمان يشمل أن المسيح مات من أجل خطايانا وتبريرنا (رويا 25:4) كما تقول الآية.

وبهذا الإيمان نخلص «إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت» (رويا ١٠:٩)

فذهبت الى الملاك قائلاً له: «أعطني السفر الصغير» فقال لي: «خذه وكُلْهُ، فسيجعل جوفك مرّاً، ولكنه في فمك سيكون حلواً كالعسل»

والخلاص هو بغفران الخطايا والانعتاق من عقوبة الموت الأبدي كما أنه يشمل قبول الحياة الأبدية، كون المسيح داس الموت وقام من الأموات وأقامنا معه في جدّة الحياة.

الإيمان هو واسطة الخلاص أو هو الذي يهبنا الخلاص، ومن جهة الفهم الخلاص يتم بالإيمان ولكن هذه المعلومة اللاهوتية معكوسة.

والصحيح ان الخلاص أكمله السيد المسيح وقدمه هبة مجانية للخطاة، فالذي يؤمن أي يصدّق يحسب الله إيمانه خلاصاً إذاً فالإيمان هنا ليس هو ثمن الخلاص لأتن الخلاص وهب مجاناً وتصوير الأمر عملياً هو كالآتي:

المسيح أكمل الخلاص وحمله على يديه وقدّمه للخاطئ، فالذي يمد يده ويأخذ يكون قد خلص، فالإيمان ليس ثمناً ولا واسطة بل هو تصديق وآخذ معاً. لأن الله في المسيح يريدنا أن نخلص بدافع الحب والرحمة للخاطئ.

« لا يموت الخاطئ بل يحيا »، فلا يتطلب من الإنسان الخاطئ سوى أن يصدّق حب الأب: « نحن قد عرفناه وصدّقنا المحبة التي لله فينا»[يوحنا ١٦:4] قال لها يسوع:

« اذهبي وادعي زوجك وتعالى الى هنا».

بهذا الإيمان لا يشكل أي جهد فكري أو جسدي عند الانسان الخاطئ لكي يخلص، كل ما يطلبه الله أن يقبل ويرضى بالخلاص وهو معروض عليه ليأخذه لنفسه كحق له ليعيش به حسب مشيئة الله والمسيح « الذي يريد أن جميع الناس يخلصون والى معرفة الحق يقبلون »[اتى٤:٢] واظبوا على الصلاة ساهرين فيها بالشّكر.

تم التوضيح هذه العملية اللاهوتية وحب الله وخيرته التي تفوق العقل والمنطق ما عمله مع ابراهيم كأساس إلهتي لمعنى وحقيقة هبة الله وإيمان الانسان، وكان هكذا« بعد هذه الأمور صار كلام الرب الى أبرام في الرؤيا قائلاً: لا تخف يا أبرام، أنا ترس لك، أجرك كثيرّ جداً... ثم أخرجه الى الخارج وقال: انظر الى السماء وعدّ النجوم إن استطعت أن تعدها، وقال له: هكذا يكون نسلك. فآمن (أبرام) بالرب فحسبه له برا >>. [تك ١٥:١،٥،٦]

واضح هنا أن الله قدّم نفسه لإبراهيم أن يكون ترساً له، أي حافظاً وحارساً من كل شر بدون شروط أو مطالب ثم قرر أن يكون أجره عند الله كثيراً.

ثم عاد ووهبه بركة لنسله تفوق الفكر والعدد. وكان رد ابراهيم الوحيد على هبة الهبات أنه آمن بالوعد المجاني، وحسب له إيمانه براً، بمعنى أنه اعتبره قد صار تقياً وقديساً دون أي عمل من طرفه.

هل إيمان ابراهيم هو الذي وهبه وعد الله وبركته؟

قبل أن يتحرك قلب ابراهيم بالإيمان كان الله قد قطع معه العهد والوعد ومنحه البركة!!

فما هو قيمة ووزن إيمان ابراهيم؟

ابراهيم هو تصديق صدق الله وحبه ووعده وعهده. وهذا التصديق أسر قلب الله لأنه كان بمثابة تكريم وتعظيم واعتراف وتسبيح لصدق الله في وعده وحبه السخي جداً وفي المقابل لا توجد إهانة لمجد الله أكثر من عدم تصديق وعوده ومحبته، لذلك لم يعنف المسيح تلاميذه أكثر مما عنّفهم بسبب عدم إيمانهم: «أيها الجيل غير المؤمن الى متى اكون معكم، الى متى احتملكم»[مرقس.٩:١٩].

وكل هذا التعنيف لأنهم فشلوا في عمل معجزة بعدم إيمانهم. اعتبر الله أن تصديق ابراهيم لأعمال الله هو مستوى بلوغ البرّ اي منتهى التقوى والقداسة.

وهكذا يصح من بنود اللاهوت المستحقة كل فهم واهتمام. أن الإيمان بالله هو بحد ذاته أعظم تكريم وتمجيد لله. لأن تصديق لمواعيده وعهوده للإنسان المملوءة حباً وعطاءً مجاناً حيث أن الإيمان تقبل عطايا الله وامتلاكها بكل جراءة وحينما قال لإبراهيم:« أنا الله القدير، سر أمامي وكن كاملاً»[تك١٧:١]

فهو بمثابة أمر صدر بالنفاذ لأن البركة التي يعطيها الله تشمل قيادة النعمة والحفظ « انا ترس لك»[تك ١٥:١]

أما بالنسبة لما عمله الله في المسيح فإن القول الإلهي بأن:« هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من به بل تكون له الحياة الأبدية»[يوحنا ١٦:٣] ووضح كيف ربط الحب بالبذل بالأيمان بالحياة الأبدية على مستوى العطية أو الهبة المتكاملة. فالإيمان بما عمله الله في المسيح هو هبة كهبة المحبة والبذل والحياة الأبدية التي أعطاها مجانا. فالإنسان معروض مع الحياة الأبدية هبة بهبة الذي يأخذ تلك، فالإيمان لا يخرج عن كونه حركة تصديق وثقة في القلب تندفق خلالها الحياة الأبدية.

إن الإيمان في تقدير الله يساوي البر أي يساوي التقوى الكلية والقداسة. فالإيمان عند الله مستواه أعلى من تقديم الحياة كلها وصوماً وصلاةً وأعمالاً صالحة لترضي وجه الله.

حقيقة الإيمان في الحياة المسيحية أن يؤمن ويثق بأن الله موجود، يحيا في هذا لوجود، فالذي يؤمن ويثق أن الله محبة يحيا بمحبته والذي يثق بالخلاص الذي صنعه ابنه يحيا. إذاً نقول إن « كل من يؤمن به تكون له الحياة الأبدية»[يوحنا ١٦:٣]

« الذي يؤمن به لا يدان»[يوحنا ١٨:٣]

« الذي يؤمن بالأبن له حياة أبدية»[يوحنا ٣٦:٣]

« آمنو بالنور لتصيروا أبناء النور »[يوحنا ١٢:٢٦]

« الحق الحق أقول لكم: من يؤمن بي فله حياة أبدية»[يوحنا ٦:٤٧]

وبحسب إيمان إبراهيم تكون البركة اولاً ثم الإيمان، أي التصديق هو الذي يجعل الانسان باراً أمام الله وليس الإيمان، بل البركة تعطى ثم الإيمان.

فالله بارك ابراهيم ووعده بالميراث ثم آمن ابراهيم فحسبه له الله براً. فأنت أخذت الخلاص والنعمة والحياة الأبدية وما عليك إلا أن تؤمن بذلك وتصدقه ليكون لك وليحسب لك الله إيمانك براً فبإيمانك بحد ذاته ليس على مستوى الثمن فهو لا يحنن قلب الله ولا يلزمه أن يعطيك شيئاً، لأن قلب الله مملوء من نحوك حناناً ودفع لك مجانا كل محبته فكمله في الخلاص الذي أكمله بابنه.

ومثلا بالنسبة لمرنا اخت لعازر كان مجد الله قائماً أمامها ومحيطاً بها فقال لها المسيح: « إن آمنت ترين مجد الله »[يوحنا ١١:٤٠]. فالإيمان بمثابة شباك مفتوح نرى من خلاله مجد الله، فهو فينا ولنا ومحيط بنا فإن صدقنا أي آمنا به نراه ونعيش: «لأن القلب يؤمن به للبرّ والفم يعترف به للخلاص»[رويا 10:١٦]

وهذه الآية توضيح لإيمان إبراهيم الذي صدق به المواعيد فحسبه له الله براً. فبولس الرسول يعتبر أن القلب وليس الفكر هو مصدر التصديق، لأن مواهب وعطايا الله والخلاص تم على مستوى الروح وليس الفكر لذلك فالتصديق رؤية قلبية.

لذلك القلب هو مصدر الإيمان أي الرؤيا والتصديق والثقة، تصديقه بمواعيد الله والخلاص الذي تم بواسطة الرب والمسيح أنه امتلاك حقيقي للخلاص، وحصوله على بر المسيح، لأن المسيح في عملية الخلاص مات من أجل خطايانا وأقيم لأجل تبريرنا« وللوقت صرت في الروح وإذا عرش موضوع في السماء، وعلى العرش جالس»[رويا ٤:٢]. فإيماننا بالخلاص هو تصديقه يعني نواله بالروح هكذا يؤمن القلب أي يصدق فيتبرر ببر المسيح وهذا يوازي منتهى الكمال المسيحي.

ان إيماننا بالخلاص يعني تصديق موت المسيح وقيامته من أجلنا، يمنحك مباشرة ومن الله "بر المسيح" المجاني، والبر نعرفه هو منتهى التقوى والقداسة لذلك سمي

المؤمنون. من أيام الرسل بالقديسين فكل الرسائل التي أرسلها كان يخاطب فيها بولس الرسول المؤمنين بالقديسين، لأنهم كانوا تقدسوا بالإيمان بدم المسيح حقا :

« إلى جميع والموجودين في رومية أحباء الله مدعوين قديسين»[رويا ١:٧]

« إلى كنيسة الله التي في كورنثوس المقدسين في المسيح يسوع (بالإيمان) المدعوين قديسين مع جميع الذين يدعون باسم ربنا يسوع المسيح في كل مكان »

[اكو ١:٢]

« إلى كنيسة الله التي في كورنثوس مع القديسين أجمعين»[٢ كو ١:١]

« إلى القديسين الذي في أفسس والمؤمنين في المسيح يسوع»[أف ١:١]

<< إلى جميع القديسين في المسيح يسوع: نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح>>[في 1:1]

وواضح هنا أن كل المسيحين الذين يكونون في الكنيسة اعتبروا قديسين لأنهم مؤمنين بالمسيح كما يخاطبهم بولس الرسول. ومعنى "قديسون في المسيح" أنهم يستمدون برهم من بر المسيح وقداستهم من قداسة المسيح يعني في اللاهوت: اتحاد بالمسيح بحكم الخلاص ونوال الروح القس والحياة الأبدية.

ولكن للأسف والحزن لم يعد يسمى المسيحيون في زماننا هذا بالقديسين واختص بها الأساقفة وبقية الكهنوت، مع أن أي مؤمن مسيحي يدعى في المسيح قديساً وباراً بحكم إيمانه الذي صدق به وقبل شركته مع المسيح وميراثه مع المسيح الله. كما وضح في الآية<< إلى جميع القديسين في قلبي مع أساقفة وشمامسه >>[في 1:1]

بهذا يكون القديس بولس جعل لقب القديسين لقب واحد للشعب المؤمن بالمسيح لأن صفة القداسة مستمدة من" الإيمان" بالمسيح وليس كمؤهلات شخصية:<< فالقلب يؤمن به للبر>> أي يؤمن به للقداسة أي للتقديس.

لأن المسيح الذي نؤمن به:<< صار لنا من الله براً مقدسةً وقداءً>>[1كو1 30:1]

فالتفريق الحادث الآن راجع لضياع القيمة الإلهية للإيمان. فبعد أن كان الإيمان بالمسيح هبة عامة أصبح الإيمان بالمسيح نوعاً من الوظيفة والتكريم الشخصي << لأنه قد وهب لكم لأجل المسيح، لا أن تؤمنوا به فقط بل أيضاً أن تتألموا لأجله>>[في 29:1] فأصبحت القداسة قرينة الآلام مع المسيح.

فالأن نحن ندعو إلى رفع قيمة الإيمان باعتباره هبة الله الأولى والعظمى التي أعطيت لكل من أختاره الله ودعاه إليه لينال بواسطة الإيمان، أي تصديق الله كل مواعيد الخلاص التي أكملها في ابنه من أجلنا بلا فرق بين مؤمن ومؤمن فالألقاب نحن لا نعترض لها. لكن المؤمن العادي إيمانه يحسب له براً إذا صدق مواعيد الخلاص أنها تمت له فيؤمن أنه نالها بحسب صدق وعد الله. لأن كل من نال الخلاص ويحياه هو المؤمن في المسيح بالحق.

والآن بعد أن عرفنا معرفة الحق وصدّقنا تصدّيق الإيمان الثابت أن الله حسبنا أبراراً في ابنه وصرنا قديسين لمجده وتسبيحه، لكن نؤكد أن الله لا يحاسبنا قديسين فقط لكل سيحاسبنا على أننا قديسون وتقدسنا بدم ابنه وبروحه القدوس.

وإن كان الله في المسيح جعلنا قديسين بالحق وليس مجرد أنه حسبنا كذلك فلنفهم ونثق أنه وهبنا روح قدسه ليعمل فينا أعمال القداسة وأفكار وتصورات وتأملات القديسين.

نحن مدعوون قديسين في كنيسة الله، تقررت لنا شركة مع كل قديسيها منذ البدء:<< شاكرين الأب الذي أهلنا لشركة ميراث القديسين في النور>>[كو 12:1]

فلنا في أرواحهم مؤازرة ومعونة وتنبيه حتى نكون على مستوى سيرتهم وقداستهم أما القداسة التي تجمعنا كمؤمنين في المسيح فهي وراثة وليست وعوداً أو ألقاباً وراثة قداسة البنين في جسد الأبن. فالكنيسة كنيسة قديسين لا يمكن أن ينتمي إليها إلا القديسون فالكل منحصر في جسد المسيح

وبحسب ما قلناه كخبرة حية فلنثق في وعود الله وعطايا الأبن أن القداسة التي نلناها هي بفعل الروح القدس وهو معنا وساكن في هياكل أرواحنا التي ختمها الله والمسيح

بدمه، وعلينا الأن أن نترك الروح القدس يعمل فينا نفتح له طاقات جديدة في سلوكنا وأعمالنا بتقديم الحب للجميع، لأن في بذل الحب ينشط الروح القدس ويعمل ويضيء الفكر ويهب عطايا، وهباته التي بلا حصر، فالروح القدس ساكن فينا بحسب وعد الرب والمخلص منتظراً الطاعة والخضوع له ليضيء أعماقنا على الأبن فنعرف مشيئة الأب التي وهبته لنا في المسيح.

وإن كنا نصلي أن يحل الروح القدس فينا أو يملأنا، فهو تعبير الإحساس والشعور أي نشعر بعمله داخلنا وهو قائم فينا ينتظر حركة إرادتنا وبذل مشيئتنا، ليظهر فيها ويزيدها ويلهبها ناراً من عند المسيح ونار المسيح هي لهب الحب الإلهي اذا سكن فينا حول كل شيء لحساب الله والقريب والعدو مجاناً، ولا يعود لنا سوى وجه المسيح الذي يطل من السماء كما أطل على القديس بولس فملأ حياته شكراً.

أيها القديسون الكنيسة بدون قداستكم مظلمة أنتم قوة الكنيسة وزينتها أشعلوا قداستكم بتصديق الحق وعمل الروح ليعود للكنيسة رائحة قداسة المسيح فيؤمن العالم بأن للمسيح وجوداً حقيقياً فيكم، بغياب قداستكم يكون المسيح غائب عن الكنيسة. فالصليب منكس ومهان بالكنيسة لأنه لا يوجد من يحمله بصدق ولا من يسير ويتبع المسيح باستعداد. لأن القداسة غابت وغاب القديسون الذين يثمنون الصليب برقابهم ودمائهم لذلك انحطت قيمة الصليب في عيون الناس.

هكذا تماماً وثيقة الخلاص التي كتبها المسيح بدمه وختمها الله الأب بتقديم أبوّته المجانية لكل من يقبلها ولم يعد إلا أن تختم بالموافقة أو التصديق بإيمان أي بثقة.

ولكن عظمة الله الرب هي أنه قرر أن كل من يختم بالموافقة والتصديق أي بالإيمان بعمل الخلاص يهبه البرّ، برّ المسيح، أي يمنحه قوة القداسة في المسيح.

العجب هنا يبدو مذهلاً بالنسبة للإيمان أولاً لأن جعل الله أي تصديق على عملية الخلاص تصبح نافذة المفعول لحسابه. لم يكتف بهذا السخاء بل أضاف أن كل من يؤمن أي يصدق عمل الأب والمسيح يجعله باراً أي يهبه القداسة وهي المؤهل الكامل لنوال الحياة الأبدية مع الله.

فهنا الخلاص بحد ذاته يؤكد لنا عظمة الأب في محبته الأبوية وفي بذله لأبنه من أجلنا وطريقة نوال الخلاص تؤكد لنا مرة ثانية عظمة الأب في توصيله لنا عن طريق الإيمان أي هبة التصديق بثقة في وعود الله، لننال كل المواعيد التي دبرها لنا الله منذ الأزل وفوق كل هذا كل من يؤمن أي يصدق يهبه برّ المسيح أي تقديس الروح في المسيح مجاناً.

لذلك على المؤمنون أن ينتبهوا ويستخدموا حق الإيمان ولا تستهينوا بميراثكم في المسيح مع القديسين، لأن قداستكم غنى الكنيسة والعالم وشهادة حيّة لمزيد من الإيمان لاستعلان حقيقة المسيح وإن كنتم تريدون المسيح وجوداً في الكنيسة والعالم، لأن وجود المسيح واستعلانه رهن إيمانكم بقداستكم.<< لأن هذه هي إرادة الله: قداستكم >>[1 تس 3:4]